الأكاديمية للدراسات
الإجتماعية والإنسانية

دور المدرسة في بناء الديمقراطية لدى جون ديوي

The Role of School in Building Democracy in John Dewey's Philosophy

د. حنيفي جميلة
أستاذة محاضرة « ب » ، قسم الفلسفة ،جامعة الجزائر 2
philoman70@yahoo.fr

ملخص

يهدف هذا المقال إلى توضيح علاقة التربية بالديمقراطية عند الفيلسوف والمربي الأمريكي البراغماتي جون ديوي. لقد اختار هذا الفيلسوف الإصلاح بدل التغيير الاجتماعي الشامل فسعى إلى إعادة بناء القيم الليبرالية المتمثلة أساسا في الفردية والحرية وتحقيق الذات منتقدا نموذج الليبرالية الكلاسيكية الذي أدى في نظره إلى بروز المفارقات الاجتماعية المختلفة وإلى اغتراب الإنسان. وتتطلب مهمة إعادة بناء الديمقراطية الليبرالية في نظره تربية جديدة "تقدمية" تقوي القيم الديمقراطية وتنميها لدى الناشئة. ويتمثل المبدأ الرئيس لهذه التربية في استثمار المنهج العلمي أو منهج الذكاء المنظم في العملية التربوية.

الكلمات الدالة: الإصلاح، الديمقراطية، التربية، الليبرالية، المنهج العلمي.

Abstract

I would like in this paper to highlight the relationship between democracy as a most viable and inclusive form of government, and education as an essential tool for the possibility of a genuine democracy. I will begin by John Dewey's conception of the values of liberal democracy, individuality, freedom and self-realization. It is worth to mention that Dewey has overcome the Classical Liberalism or the Old Individualism that confined freedom to the absence of external constraints on the individual's ability to pursue his chosen goals, arguing that freedom consists in the positive fact of individual's participation in the well organization of community life. Besides, virtues of democracy need education to be rooted and maintained in society's mind and individual's behaviour, for that reason the school is a social institution through which social reform should be achieved. But before highlighting the principles of the progressive education, Dewey points out to the principal weaknesses of the traditional education which was not concerned with students actual learning experiences and did not attach importance to the scientific method as the best means to achieve democracy.

Keywords : *Reform; Democracy, ;Education, Liberalism, Science.*

مقدمة

يعد جون ديوي (1859-1952) John Dewey من أكثر الفلاسفة الأمريكيين بروزا وحضورا وشهرة ذلك لأنه حمل على عاتقه مهمة مواجهة مطلب التغيير الاجتماعي الذي كان مطروحا بإلحاح في ثلاثينيات القرن الماضي في الولايات المتحدة. فقد عجزت الديمقراطية الليبرالية آنذاك عن تأمين أسباب الرقي والعيش الكريم لجميع أفراد المجتمع ما دفع إلى بروز ظاهرة المفارقات الاجتماعية الصارخة بين طبقة غنية تملك رؤوس أموال ضخمة وأخرى فقيرة تعاني ظلما وحرمانا اجتماعيا. وإزاء هذا الوضع الإشكالي اقترح ديوي مشروعه للإصلاح والتجديد الاجتماعي ولبناء الديمقراطية الليبرالية على أساس متين يتمثل في التربية التقدمية الكاشفة لفضائل المنهج العلمي والخادمة للقيم الديمقراطية.

وعلى عكس منهج التغيير الجذري الشامل القائم على العنف والصراع الطبقي ارتبط مشروع الإصلاح الاجتماعي والسياسي لدى ديوي أيما ارتباط بفلسفته التربوية وبنظرته إلى دور المدرسة في المجتمع الصناعي على وجه التحديد. لذلك أولى موضوع التربية وأهدافها ومناهجها أهمية بالغة وعناية فائقة إذ أناط بها مسؤولية تنشئة جيل متكيف مع عصر التصنيع والتكنولوجيا، أي أسند إليها وظيفة اجتماعية محددة تتمثل في إنماء النشاط الجماعي المشترك الذي يخول لكل فرد من أفراد المجتمع فرصة واسعة لتحقيق فرديته المتميزة وحريته، وكذلك يسهم في الخير العام. وبذلك تكون التربية بمثابة بناء قاعدي منيع يحصن الغايات الديمقراطية وينقذ المبادئ الليبرالية النبيلة من التعثر والسقوط ضحية زلات الفردية الجشعة والاستغلالية.

يعتبر ديوي الديمقراطية السياسية «أفضل وسيلة وجدت حتى الآن لتحقيق الغايات الكامنة في ميدان العلاقات البشرية الواسع ولتطوير الشخصية الإنسانية.» [1] إلا أنها تبقى في نظره غير كافية، ذلك أن التصويت العام والأحزاب السياسية والجمعيات وغيرها من التجليات السياسية للديمقراطية الليبرالية لا تعبر عن جوهر الديمقراطية لأنها وإن تفادت الوقوع في الاستبداد السياسي لم تحل دون الاستبداد الاجتماعي الذي برزت معالمه في التفاوت الاجتماعي وفي الحرمان والظلم. لقد عانت الديمقراطية السياسية فراغا اجتماعيا وأخلاقيا تطلب سدهما إيجاد آليات ملائمة لتنظيمها وتوجيهها صوب تحقيق غايات الديمقراطية الأصلية ذات البعد الإنساني الفعلي، أي الديمقراطية بصفتها نمط حياة اجتماعي وفردي يتضمن قيما تحتل المرتبة الأولى في سلم القيم الاجتماعية.

1 ـ قيم الديمقراطية الليبرالية

تتمثل أولى هذه القيم في الفردية حيث دعا ديوي إلى بناء تصور جديد للفردية يقوم على النظر إلى الفرد باعتباره «طاقة وقدرة على التطور...وأسلوب فريد للفعل في ومع عالم من الأشياء والأشخاص»[2] .وهذا معناه أن الفرد ليس كيانا قائما بذاته بقدر ما هو كيان عقلي وروحي يتفاعل وتغيرات المحيط الاجتماعي، إنه «شيء يصنع وينجز.إن الفردية تعني الابتكار والقدرة على الاختراع وسعة الحيلة وتنوعها واضطلاع المرء بتبعة اختياره لمعتقداته وطرق سلوكه وتصرفاته، وليست هبات تمنح ولكنها أعمال تنجز»[3] .

أما ثاني هذه القيم فيتمثل في الحرية التي اعتبرها ديوي جوهر الديمقراطية بصفتها نمط حياة وهو يقصد الحرية الإيجابية التي تتضمن تحقيق الذات أو النماء* Self-Realisation or Growth والذي يعتبر غاية أخلاقية يجب على كل من الفرد والمجتمع على حد سواء أن يسعيا إلى تحقيقها. ليس النماء «عملية إكمال ماهية ثابتة معينة كامنة في الفرد أو المواطن، مطابقة لأخلاق محددة مسبقا أو لصياغة أخلاقية شرعتها الطبيعية أو المجتمع، إنه مشروع إبداعي يتميز به النمو الفردي»[4] ليس على المستوى البيولوجي فقط بل على المستويات الفكرية والأخلاقية والجمالية أيضا. ولا ينتهي النماء إلى غاية معينة بذاتها لأن الإنسان كائن ما يفتأ ينمي إمكاناته ويتفاعل مع الظروف المحيطة يؤثر فيها ويتأثر بها. ويعد «كل نشاط طوعي يقوم به تجديدا للذات ما دام يخلق رغبات جديدة ويشجع على أنماط جديدة من الجهد. ويسلط الضوء على شروط جديدة تؤسس غايات جديدة»[5] . هكذا دواليك ما من غاية للنماء ما عدا النماء في حد ذاته. هذا وليس من ريب في أن تصور النماء يحتاج إلى إطار اجتماعي ملائم وأرضية ثقافية حرة.

وتتمثل القيمة الثالثة في تحقيق الذات وهي مهمة تشترط في نظر ديوي مشاركة كل فرد بالغ في تكوين القيم التي تسير حياة الناس مع بعضهم بعضا ،حيث لا ينبغي أن يحصر الفرد نشاطه في الأمور الاختصاصية والفنية فقط بل يجب أن يشارك مشاركة فعالة في التخطيط الاجتماعي وفي تشكيل سياسة المجتمع. وما دام الفرد متأثرا بمختلف المؤسسات التي يعيش في ظلها فمن حقه أن يسهم فعليا في إدارتها إسهاما مباشرا ونشطا يكفل له الإفصاح عن قدراته وتحقيق ذاته وحريته. ومن المؤكد أن الديمقراطية لا تترقى إلا إذا اشترك أفرادها في توجيه الأمور العامة التي تهمهم جميعا وذلك في إطار ما يسمى "ديمقراطية المشاركة Participatory Democracy" التي اعتبرها ديوي السبيل الوحيد الذي يتسنى للفرد من خلاله أن يحقق ذاته في الكيان الاجتماعي. ففي ظل هذه الديمقراطية تكتسي مسألة الإسهام في الإدارة السياسية للمؤسسات الاجتماعية أهمية قصوى إذ تصبح حقا وواجبا مفروضا على أفراد المجتمع ككل بصفتهم كائنات تؤثر في هذه المؤسسات بنشاطها وفاعليتها كما تتأثر بها أيضا. ومن ثمة لا يوجد شخص بعينه أو أشخاص بعينهم يحظون بأهلية الحكم والتسيير دون الآخرين بحجة أنهم أكثر ذكاء وأقدر من غيرهم على إصدار القرارات الحاسمة وتحمل عبء

المسؤولية.

2 ـ التربية وسيلة الإصلاح الاجتماعي

إن فضائل الديمقراطية بصفتها نمط حياة فردي وجماعي، وسلوك أخلاقي واجتماعي سوف تبقى عبارات خاوية لا تملك مدلولا عينيا من دون تربية نوعية محددة ذلك أن فضائل التبادل الحر للأفكار والتجارب والتوزيع المتساوي والمتنوع للفرص والاعتراف الواسع بالمصالح والغايات المشتركة ليست معطاة من البدء «إنما يجب أن تغرس وتتغذى إنها متوقفة على التربية.» [6] كما أكد ديوي. تبعا لذلك تعد التربية بالنسبة إليه الوسيلة الأساسية للإصلاح الاجتماعي والذي سوف يتم إنجازه من خلال المدرسة لأنها الوسط الاجتماعي الرئيسي المؤهل لغرس الأخلاق الديمقراطية في ذهنيات الأطفال وسلوكهم، وذلك بجعل مبدأ تكافؤ الفرص حقيقة فعلية يستفيد منها الجميع من دون أي تمييز مهما كان نوعه. وهذا ما نقرأه في قول ديوي إن «الديمقراطية التي تطالب بتساوي الفرص كمثل أعلى لها تتطلب تربية يكون فيها التعلم والتطبيق الاجتماعي والأفكار الممارسة والعمل والاعتراف بقيمة ما هو منجز موحدا منذ البداية ومن أجل الجميع»[7]. مع هذا لا بد أن ننتبه إلى أن ديمقراطية التعليم أو مبدأ تكافؤ الفرص للجميع لا يؤديان بالضرورة إلى ظهور عقلية وسلوك ديمقراطيين.

هذا وتتأتى أهمية التربية خاصة من كونها عملية اجتماعية تكسب الفرد أنماط السلوك العقلي والعاطفي التي تؤهله لأن يصبح فردا يشاطر الجماعة في فعالياتها المختلفة ويتواصل معها، أي أن نشاطه يصبح مرتبطا بنشاط الجماعة ارتباطا وثيقا.

تمثل المدرسة بصفتها مخبر فعالية الأفكار التربوية المحيط الاجتماعي الرئيسي القادر على إنتاج الإنسان الديمقراطي الأصيل، وعلى «خلق عادات وآفاق تكون قابلة ومتحمسة لتحقيق غايات السلام والديمقراطية والاستقرار الاقتصادي»[8] إلا أنه ليس كل نظام تربوي قادر على إنتاج فردية جديدة مما يبعث على الحاجة الماسة وفق ديوي إلى أحداث تغيير تربوي جذري كاف بجعل التربية أكثر قدرة على قيادة المجتمع وتوجيه مستجداته وحل معضلاته التي تولدت جراء التقدم العلمي والتقني. وعليه لابد أن تتخلى العملية التربوية عن نظام التربية والتعليم والمناهج والمضامين التربوية السابقة على معطيات العلم والتقنية وتتخذ بدلا منها «الاستعمال المنظم للمنهج العلمي نموذجا ومثالا للاستكشاف الذكي ولاستثمار الطاقات الكامنة في التجربة».[9]

3 ـ مواطن نقص الفلسفات التربوية السابقة

قبل أن نتطرق إلى ماهية التربية الجديدة لدى ديوي يجدر بنا أن نعرف مواطن الضعف الأساسية التي رآها في الفلسفة التربوية القديمة.ففي نظره لقد عجزت هذه الفلسفات عن الاستثمار الايجابي لمعطيات العلم والتقنية وعن جعلهما «عاملين نشطين في خلق المواقف والاستعدادات وفي تأمين أنواع من المعرفة القادرة على مجابهة معضلات البشر»[10]. فقد كانت المواد العلمية تدرس كوقائع فيزيائية محضة وجاهزة وكمجموعة من المهارات التقنية المفصولة تماما عن شؤون الحياة البشرية، وليس كطاقة قادرة «بمنهجها على تزويدنا بنموذج لكل سلوك فعال وذكي»[11]. ولا حاجة إلى القول إن المناهج التعليمية المتبعة هي التي كرست العجز عن التعامل المثمر مع مكتشفات العلم والتقنية حيث كانت مناهج محافظة وجامدة ترتكز إما على شحن أذهان الأطفال بالمعلومات بواسطة التكرار والتمارين الآلية أو شرح وتأويل نظري للمؤلفات الأدبية.

بناء على ما سبق رأى ديوي أن النماذج التربوية الراهنة أهملت ما للتفاعل مع المحيط من تأثير في تشكيل الاستعداد الذهني والأخلاقي لدى الطفل. إلى جانب ذلك عملت على تكريس الفصل التقليدي بين النظرية والتطبيق حينما ميزت بين التربية المهنية أو اليدوية Vocational Education التي يتلقاها الأطفال غير القادرين على التحصيل الفكري والذين يمثلون الأغلبية العظمى، والتربية الفكرية Education Liberal التي يتلقاها النجباء منهم. والهدف من وراء هذا التمييز حسب ديوي هو إمداد المجتمع بطبقة تمثل النخبة المفكرة وبطبقة أخرى عاملة ومستغلة وذلك من أجل خدمة أغراض الطبقة السائدة اقتصاديا وسياسيا فقد كانت «المدارس مثل الفعاليات الأخرى واقعة تحت سيطرة الأقليات القوية والتي استعملتها لصالح غاياتها الخاصة»[12].

وعلى الرغم من التعديلات الطفيفة التي أدخلت على المواضيع المدروسة والمناهج التعليمية المتبعة فإن الحاصل كان عبارة عن خليط امتزج فيه الإرث الثقافي العقيم بالقدرات الجديدة التي لم يتسن لها الإفصاح عن قيمتها الاجتماعية والإنسانية. وهكذا فشل النموذج التربوي الموجود في ترقية الغايات الديمقراطية وإعطائها البعد الاجتماعي الفعلي اللائق بها ومن ثمة فشل في إنتاج الإنسان الديمقراطي المنشود.

أسس التربية الجديدة

تقوم التربية الجديدة على اعتبار المدرسة مؤسسة اجتماعية ونموذجا فعليا وحيويا للتجربة الحياتية للطفل، ومن المستحيل وفق ديوي أن يغدو هذا الاعتبار حقيقة مجسدة من دون الاستثمار الاجتماعي الذكي للمنهج العلمي التجريبي. فإذا كان منهج الذكاء المنظم والتعاوني هو المنهج الأساسي والملائم للإصلاح الاجتماعي فإن مهمة المدرسة يجب أن تتجلى في غرس هذا المنهج وتنمية استعمالاته لدى الناشئة حتى تتكون لديهم مواقف علمية يسهمون بها إيجابيا في النشاط الجماعي المشترك. ويمثل إدخال المنهج العلمي إلى المدرسة الطريق الأصوب لدمج المدرسة في صلب المجتمع،

ومن ثمة إسهامها في معالجة معضلاته. وعليه لابد من إتاحة الفرصة لكل من العلم والتقنية ليغدوا عاملين فعليين في المدرسة على غرار فعاليتهما في المجالات الفيزيائية. وسوف تبرز هذه الفاعلية خاصة عندما «ينظر إليهما ويعاملان على أنهما قوتان بارزتان في إعطاء التوجيه لسلوك الإنسان الجماعي والتعاوني» [13].

إذن كي تبلغ الناشئة مستوى الوعي الاجتماعي التعاوني وتشكل فردية جديدة منسجمة والتغيرات الاجتماعية، لابد من «تطوير المناهج المخبرية التي سوف توصل بنشاطات الإنسان الصناعية العادية»(14) ويقصد من هذا القول إدخال منهج الذكاء المنظم في المدرسة وذلك عن طريق النشاط اليدوي أو التقني Manual Activity.

بالنسبة إلى ديوي ليست المدرسة مجرد مكان معد لتلقين الدروس للتلاميذ وشحن أذهانهم بالمعلومات وتجارب الأجيال الفارطة، إنما يجب أن تكون فعلا مؤسسة اجتماعية تهدف إلى إنشاء علاقة تواصل وطيدة بين الناشئة والمجتمع «فالمدرسة ببساطة هي تلك الفعاليات التي سوف تكون أكثر تأثيرا في تهيئة الطفل للمساهمة في الموارد الموروثة للجنس واستخدام قواه الخاصة من أجل غايات اجتماعية.» [15]

يجب أن تكون المدرسة مجتمعا جنينيا تنعكس فيه صورة الديمقراطية بصفتها مثلا أخلاقيا أعلى، ولهذا الانعكاس ضرورتين واحدة نفسية والأخرى اجتماعية. فالمطلب النفسي ضروري لاستمرار نمو الطفل ولربط الأفكار الجديدة التي يتلقاها في المدرسة بتجاربه الماضية. إذ تساعد المدرسة على تواصل نمو الطفل عندما تجعله مدركا لأهمية النشاطات المنزلية مثلا. وكذلك عندما تستعرض مختلف أنشطة الحياة الجماعية بشكل نموذجي مبسط. والمطلب اجتماعي أيضا لأن الحياة المنزلية هي صورة الحياة الاجتماعية التي تربى فيها الطفل وتلقى منها التربية الخلقية ومهمة المدرسة أن تحافظ وتعمق شعوره بالقيم المرتبطة بالحياة الجماعية التي نشأ فيها. كذلك على المدرسة إذا أرادت أن تصبح مؤسسة اجتماعية ذات قيمة وفعالية أن تقوم بفحص العادات السائدة وتنقيتها من أجل تحاشي تأثيراتها السلبية في ذهنيات الأطفال. أيضا عليها أن تعمل على تحرير الفرد من قيود الجماعة التي ينتمي إليها بأن تفتح له آفاقا للتفاعل وتبادل الأفكار والتجارب مع الجماعات الأخرى المختلفة وهذا من أجل ضمان محيط أكثر اتساعا وتوازنا.

إن تجديد روح المدرسة وتحقيق الاندماج الاجتماعي المثمر رهين وفق ديوي بالتأهيل الاجتماعي لمنهج الذكاء العلمي Socialisation of Intelligence وبتدريب الطفل على استخدامه من خلال النشاطات اليدوية حتى يغدو عادة راسخة لديه حيث تقدم للتلاميذ مجموعة من الإشكالات ذات الصلة بالواقع الاجتماعي أي ليست إشكالات نظرية تجريدية تهدف إلى مجرد التعليم التلقيني. ويقوم التلاميذ بتنظيم أنفسهم في فرق عمل وبعد إجراء الملاحظات العينية المطلوبة يقترحون فروضا ثم يضعونها موضع الاختبار. ولابد أن يتبدى منهج الذكاء «في صورة إدراك واضح لنتيجة نشاط ولابد أيضا أن يكون البحث عن الوسائل وتكييفها جزءا كبيرا»[16] من النشاط اليدوي الذي ينجزه التلاميذ.

ليس ثمة شك بالنسبة إلى ديوي في أن النشاطات المهنية من نسج وخياطة ونجارة وطبخ من شأنها أن تكون «مراكز فعالة للنظر العلمي في المواد والإجراءات الطبيعية ونقطة انطلاق يتوجه منها الأطفال نحو تحقيق التطور التاريخي للإنسان.» [17] وليس هنالك غاية نهاية محددة يبتغى الوصول إليها، ذلك أن الأهداف التربوية لدى ديوي ليست سابقة على الخبرة التربوية إنما متضمنة فيها. أي أنها ليست أهدافا مفروضة من إرادة خارجية أو سلطة فوقية أيا ما كانت. إن الهدف التربوي مرتبط أوثق ارتباط بقدرة الطفل على ربط الظروف العينية القريبة منه بظروف بعيدة عنه، أو هو إدراك العلاقة الوظيفية بين نشاط مؤدى ونتيجة مرجوة، أي ليس هنالك هدف آخر ما عدا النماء النفسي والفكري والأخلاقي والجمالي الذي يتسنى للطفل من خلاله أن يغدو فردا متميزا محققا لذاته ولحريته.

وكي يستقيم هذا التصور التربوي استند ديوي إلى معطيات النمو النفسي الاجتماعي خاصة منها الدوافع الاجتماعية للسلوك. ورأى ضرورة إتاحة الفرصة لعوامل المجال النفسي للطفل أي الغرائز والميول والدوافع والحاجات التي تؤثر في سلوك الفرد وفي استجاباته للمثيرات الاجتماعية وفي علاقاته الاجتماعية كذلك لأن نكران دور العوامل أو الاستهانة بها يعيق عملية النمو ويوقفها عند مستوى معين ويؤدي إلى بروز شخصية مفككة وغير سوية، لذا يجب أن يعنى المربي أثناء العملية التربوية برعاية القدرات الكامنة في طبيعة الطفل وتنشيطها وإخراجها من حالة القوة والكمون إلى حالة الفعل وكذلك توجيهها بواسطة عرض إشكالات عملية وتدريب الطفل على التفكير بذكاء. وأكد ديوي ذلك في قوله إن «التربية الإنسانية الحقيقية تتكون من توجيه ذكي للمناشط الفكرية في ضوء إمكانات وضروريات الموقف الاجتماعي» [18].

ثم إن الاستعمال الإيجابي لقدرات الأفراد الطبيعية في أشغال ذات معنى اجتماعي، أي الاستعمال الموجه بواسطة منهج الذكاء سوف ينجم عنه لا ريب تحقيق الفضائل الديمقراطية المبتغاة والمتمثلة في تحرير القدرات الشخصية، وتوسيع النشاط الجماعي المشترك الذي يؤهل الفرد لتحقيق ذاته. ويتم اكتساب هذه الفضائل الديمقراطية بعد تكوين الروح العلمية لدى الطفل وتعويده على ربط التفكير بالتطبيق ربطا وظيفيا، والاتصال المباشر بمعطيات الواقع الحسي والاجتماعي المتغير باستمرار.

والحق تعد فكرة أن التفكير العلمي يولد الفضائل الديمقراطية فكرة صعبة التصور ومن المبالغة الوثوق بتحقيقها، إذ في الحقيقة لا يوجد تلازم ضروري بين العلم والديمقراطية فليس من المستحيل إطلاقا أن يدافع العالم عن إيديولوجيات

أخرى غير الديمقراطية أو أن تصدر عنه ممارسات منافية للروح الديمقراطية بل وممارسا لها بمحض المصادفة، أي من دون أن يكون للمنهج العلمي أي دخل في ذلك. مع هذا فإن ديوي متيقن تماما أن فكرة تلازم العلم والديمقراطية قابلة للتحقيق الواقعي، فالاسترشاد بالمنهج العلمي أثناء ممارسة النشاطات المهنية كفيل باكتساب الطفل سمات فكرية وسلوكية ما تفتأ تنمو باستمرار من ذلك الفاعلية وروح المبادرة والاستقلالية الفكرية والاعتماد على الذات وكذلك الشعور بالمسؤولية وواجب النشاط الجماعي التعاوني الذي يهدف إلى الخير العام.

يتبدى لنا إذن أن النشاط المهني في المدرسة ليس مجرد عمل تطبيقي أو مهارة تقنية. إنما هو تجربة حياتية تقضي على الفجوة بين خبرة الطفل اليومية ومضامين الدروس المتلقاة في المدرسة. ومطمح التربية لدى ديوي هو أن تكون عملية حياة وليس إعداد لحياة مستقبلية.

على ضوء ما سبق نخلص إلى أن التربية الوظيفية التجريبية التي تتعهد بإنماء ورعاية التجربة الجماعية المشتركة التي تنمو فيها قيم الفردية والحرية وتحقيق الذات بواسطة تطبيق عملي لمنهج الذكاء المنظم هي الضامن الأكبر الأساسي لترقية الديمقراطية في المجتمع الصناعي وتكوين جيل يكون ديمقراطيا تماما وفي كل المجالات. فالهدف كان سياسيا وإنسانيا بالدرجة الأولى يتحقق باستحداث علاقة تفاعلية مثمرة بين العلم والديمقراطية والتربية. ومنه فإن نظرية ديوي التربوية مبررة سياسيا واجتماعيا وهي «متسقة مع اعتقاده بأن كل نظرية يجب أن تكون خادمة للديمقراطية، وأن كل مظاهر الحياة لابد أن تصبح ديمقراطية في التطبيق إذا أريد للديمقراطية أن تتحقق وتتقدم»[19].ونصل هنا إلى استنتاج ملاحظتين مهمتين هما :

- **ولا لا** جدال أن ديوي استفاد كثيرا من الفلسفات التربوية السابقة التي انتقدها وفي الآن ذاته استوحى العديد من الأفكار منها خاصة فلسفة فريدريش فروبل Froebel Friedrich (1782-1852)،الذي اشتهر بمشروعه التربوي "روضة الأطفال Kindergarten». ويتبدى تأثره به في فكرة اللعب الذي يعد وسيلة هامة جدا لتحقيق النمو المتوازن للطفل، بواسطته تبرز قدراته الطبيعية وما يتمتع به من ذكاء وطاقات تخيلية ناهيك عن كونه يدرب الطفل على العمل الجماعي ويكسبه روح التعاون المتبادل. ومع أن ديوي أولى أهمية قصوى للعب لكنه لم يعتبره مجرد نشاط رمزي أو فيزيائي ينهك الطفل فيه قواه الفكرية والفيزيائية ويقلد من خلاله أفعال الكبار وتصرفاتهم، إنما هو نشاط حقيقي يستعمل فيه مواد واقعية ويتضمن إنجاز أعمال شبيهة بتلك التي ينجزها الكبار كما أنه نشاط موجه يتضمن توقعا مستقبليا.*

- **ثانيا** وعلى ضوء ما سبق نخلص إلى أن إسهام التربية في الإصلاح الاجتماعي تبرز من خلال عملها على تكوين جيل ديمقراطي يتحلى بالروح الجماعية وبالذكاء العلمي في كافة ميادين الحياة. فلما كانت الديمقراطية لا تقوم على القوة والإكراه «لزم أن تجد عوضا عنهما في الاستعداد والاهتمام الطوعي وهذان لا يمكن خلقهما إلا بالتربية»[20]. فهي منظومة اجتماعية تتحمل قدرا كبيرا من المسؤولية في نجاح أي مشروع اجتماعي أو فشله. وعليه يجب أن تكون أداة تغيير ناجعة تعمل على تنمية إمكانات الإبداع لدى الأفراد وتوجيهها توجيها يصون الغايات الديمقراطية ويطورها. أي عليها أن تنتج فردا مندمجا اجتماعيا وذكيا ومتحليا بالروح النقدية وقادرا في المستقبل على إبداء آرائه وتحمل نتائج أفكاره وكذلك أخذ نصيبه في تشكيل سياسة المجتمع وتنفيذها.

الخاتمة

يمكن القول في الختام إن التربية تمثل شرطا ضروريا لنجاح المشروع السياسي والاجتماعي الذي اقترحه ديوي. لكن من المعروف أن المدرسة التجريبية* التي أنشأها ديوي نفسه والمدارس التي أُنشئت من وحي أفكاره التربوية تعرضت للنقد الشديد –ولا غرابة في ذلك إذ لا توجد نظرية معصومة من النقد- ولم تحرز النجاح التام. ولعل ذلك مرده إلى كون أن الأذهان التي ألفت قرونا نموذجا معينا من التعليم لم تستعد لتقبل فكرة المدرسة التجريبية وبذلك لم توفر لها المناخ الملائم. وطبعا هذا لا يعني أن التربية التقدمية كما رأها ديوي لا تخلو من نقائص وعيوب شأنها في ذلك شأن أي نموذج تربوي آخر. ومن بين هذه النقائص عدم تبيان ما الذي يضمن نجاح المربين في تأدية مهمتهم إذا كانوا هم أنفسهم يحتاجون إلى معرفة منهج الذكاء العلمي وممارسته قبل تعليمه. أضف إلى هذا تتبدى مهمة إصلاح التربية مهمة صعبة للغاية ما دام الفساد الاجتماعي والأخلاقي تفشى في المجتمع كله بمختلف مؤسساته فلا يعقل أن يفلت منه القائمون على المنظومة التربوية.

مع هذا تبقى مبادئ المشروع الاجتماعي والسياسي لديوي صلبة ومتماسكة حتى وإن كانت تعوز إلى التحقيق الكامل للمدرسة التجريبية. وعلى الرغم من أن ديوي عوّل كثيرا على التربية فإنه لم يعتبرها الوسيلة الوحيدة للإصلاح الاجتماعي. فقد أكد أن التطبيق الشامل للمنهج العلمي يبدأ من الأسرة إلى المصنع وكافة المؤسسات الاجتماعية كما يتبين من قوله «إن المدارس لا تشكل القوى التكوينية القاطعة وإنما المنظمات الاجتماعية والاتجاهات الحرفية وطابع الترتيبات الاجتماعية هي المؤثرات الأخيرة المسيطرة في تشكيل العقول وتكييفها»[21].

الهوامش

1 –J.Dewey, Intelligence in the Modern World, John Dewey's philosophy, edited by Joseph Ratner, (N.Y: Modern Library Giant, 1939), p.400.

2- جون ديوي، الفردية قديما وحديثا، تر: خيري حمادة، (لبنان، بيروت:

.منشورات دار مكتبة الحياة، 1960،ص154

جون ديوي، تجديد في الفلسفة، تر: أمين مرسي قنديل وزكي نجيب–3 .محمود، (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، دون تاريخ)، ص314

❖–تجدر الإشارة إلى أن ديوي استعمل مصطلح «تحقيق الذات» في المرحلة الهيجلية ومصطلح «النماء» بعد انفصاله عنها.

4- Richard Shusterman, « Le libéralisme pragmatique », (Critique, N°555-556, Août - Septembre, 1993), p.554.

5- J. Dewey & James Tufts. H, Ethics, revised edition, (N.Y: Henry Holt & company, 1936), p.340.

6- J. Dewey « Need of an Industrial Education in an Industrial Democracy », in Social History of American Education, Vol. III : 1860 to the Present, edited by Rena L.Vassar, 2nd printing (Chicago : Rand Mc Nally & company, 1966), p.185.

7- J. Dewey & Evelyn Dewey, « Democracy & Education », in Social History of American Education, edited by Rena L.Vassar, p.260.

8- J.Dewey, The essential writings, edited by D.Sidorsky, 1st edition, (U.S.A: Harper Tarchbooks, 1977), p.232.

9- J. Dewey, Intelligence in the Modern World, John Dewey's philosophy, edited by Joseph Ratner, p.679.

10- J. Dewey & Tufts James.H, Ethics, p.407.

11- Ibid, p.407.

12- Ibid, p.406.

13-J.Dewey, The essential writings, edited by Sidorsky D, p.233.

14-. J. Dewey, « Need of an Industrial Education in an Industrial Democracy», in Social History of American Education, edited by Rena.L Vassar, p.189.

15 –جون ديوي، «عقيدتي التربوية»، في جون ديوي، لأحمد فؤاد الأهواني، الطبعة الثانية،(القاهرة: دار المعارف بمصر، 1968)، ص162

16-J. Dewey, Intelligence in the Modern World, John Dewey's philosophy, edited by Joseph Ratner, p.606.

17- J. Dewey, School & Society, (The university of Chicago Press: Phoenix Books, 1956), p.12

18- جون ديوي ، الطبيعة البشرية والسلوك الإنساني، تر: محمد لبيب النجيحي، (القاهرة: مؤسسة الخانجي، 1963)،ص120.

19- Robert Horwitz, « John Dewey », in History of political philosophy, edited by Leo-Strauss & Joseph Cropsey, (Chicago: The University Press of Chicago, 1981), p.819.

❖–للتوسع أكثر فيما استفاده ديوي من الفلسفات التربوية السابقة، وكذا الانتقادات التي وجهها إليها، أنظر الفصلين الخامس والسادس من كتاب: جون ديوي، الديمقراطية والتربية. وكذلك كتابه: المدرسة والطفل.

20-J .Dewey, Démocratie et Education, tr : Gérard Deledalle, (Paris : Armand Colin, 1990), p133.

❖–مدرسة شيكاغو التجريبية School of Chicago Laboratory أنشأها ديوي سنة 1897 ودامت إلى غاية 1903.

21–جون ديوي، الفردانية قديما وحديثا، ص.911.